الوظائف الإقتصادية والإجتماعية للحلي الإسلامية

د. سعد محمود الجادر

التزين والتجمل هو الأساس المبدئي لاقتناء الحلي والمصوغات كما أنه ميل إنساني تفرضه عوامل عديدة منها الحاجة إلى تامين الاستقرار النفسي وضمان المستقبل، حيث تشعر المراة بشكل خاص بالأمان بما تحرزه من مصاغ. إذ أن صروف الدهر متقلبة وغوائل الزمن غدارة، وكذلك أمزجة الرجال: فالرجل عند المرأة مخلوق لا أمان له، أما الأولاد فإنهم يتفرقون كل في فلكه. كما تظل المرأة في خوف أزلي من الترمل في حالة موت زوجها أو هجرها أو اقترانه بأخرى فتبقى وحيدة مع أطفالها. بالإضافة إلى تجنب مخاطر الإبقاء على العملة الورقية مخزونة في المساكن والمصارف وهي معرضة لانخفاض قيمتها. وعليه فالمعادن النفيسة والأحجار الثمينة تكون غطاء مادياً

مضموناً. كما أن الذهب والفضة مقياس مهم للثروة وموازنة البضاعة وقاعدة متينة للحياة الاقتصادية منذ عصور ما قبل التاريخ.

فالإقبال على حيازة الذهب والفضة سبيكة وحلية عادة أزلية ناجمة عن الثقة العالية بهذه المعادن عبر العصور، حيث لا تتأثر بالعوامل الطبيعية، ولا ضريبة عليها. كما أنه أفضل ما يورث للأبناء والأحفاد ويمكن تحويله إلى نقود سائلة في أي وقت من الأوقات. ولازال بعض الأثرياء يضعون جزءاً من أموالهم في المصارف ويشترون بالجزء الآخر المعادن النفيسة والأحجار الكريمة لموازنة ثروتهم وتجنبا لهبوط قيمة النقود أو تغييرها واستبدالها بشكل فجائي.

وإذا كان الحكام والأثرياء يفضلون حيازة الأحجار الكريمة والثمينة انطلاقاً من معرفتهم بقيمتها وتقديرهم لجمالها وندرتها فإن عامة الناس تفضل ما تعرفه وتثق به وهو المعادن النفيسة، التي تحمل دمغة يتعذر غشها وتزويرها إذ يظهر من تجربة محدودي ومتوسطي الدخل في اقتناء الأحجار بأسعار عالية أنهم لم يستطيعوا في أوقات الشدة بيعها حتى بنفس أسعار الشراء. حيث يتلاعب التجار والمغرضون بأسعار بعض الأحجار الكريمة كالماس، فيبثون لها الدعاية الزائفة ويقيمون المزادات لعرضها وتشجيع الاستثمار فيها، وما أن يستثمر الأهالي أموالهم بشرائها

● مزهرية باكستانية ●

حتى يعلن عن تدني أسعارها، ناهيك عن إغراق الأسواق بالماس الصناعي والأحجار المزورة وعرضها على أنها حقيقية. وكان لادخار المصاغ دورٌ مهم في حفظ نماذجه عبر التاريخ الإسلامي سواء كمسكوكات يعثر على كنوزها المطمورة أو على شكل حلي ومواد زينة.

حيث أن إنقاذ وإخفاء الثروات عادة عرفتها الحضارات منذ أقدم العصور، فأول ما ينقذه الناس في أوقات الشدة والخطر هو ما خف وزنه وغلا ثمنه وسهل نقله من نقود وحلي. إذ يحترز الموسرون والأثرياء ضد سرقة ممتلكاتهم من مصاغ ومصنوعات ونقود من الذهب والفضة. وقديماً كانت الحلي تحفظ في صناديق خاصة أو توضع داخل مخابيء مستترة داخل البيت لا يعرفها إلاّ صاحبها، فبعضهم يخفيها تحت رأسه كل ليلة. وآخر يصنع لثروته صندوقاً متيناً ذا نظام اقفال معقد، كقاصات اليوم، ويخزنها فيه يستخدم ما يحتاجه بين آونة واخرى. وآخرون يدفنون ثرواتهم في جرار تحت الأرض بعيداً عن الأنظار، ولازال ذوو الحظوظ من عامة الناس ومنقبو الآثار يعثرون على بعضها هنا وهناك بين وقت وآخر.

● صحن من باكستان ●

والآن وحين يتعاظم شعور الناس بضعف الأمن وتتوارد حوادث السرقة يلجأ الكثير إلى تخزين مصاغهم في صناديق البنوك.

ونتيجة لضعف أو انعدام أنظمة الضمان الاجتماعي في العالم الإسلامي تحل المعادن النفسية مكان هذا الضمان بأشكال متعددة: ففي البلدان التي تمثل الطبقة الوسطى فئة مهمة في المجتمع يتطلع سكانها إلى اقتناء السيارات والأدوات الكهربائية والأثاث والتمتع بحياة جيدة... فإنهم يبيعون مقتنياتهم من الذهب والفضة لشراء

احتياجاتهم. أما في البلدان ذات الحكم الدكتاتوري فإن أفضل ما يفعله الناس هو شراء المعادن النفيسة وإخفائها وذلك لعدم ثقتهم بسياسة الدولة النقدية التي ربما تستبدل في يوم واحد كل العملات أو تسيطر عليها. وفي بعض بلدان البترول الغنية يقتني الناس المعادن النفيسة كما يلجأ الموظفون في نهاية كل شهر إلى صرف جزء كبير من مرتباتهم لاقتناء الذهب...

ويمثل المصاغ في المجتمعات الريفية بنك العائلة وثروتها وصندوق توفيرها، مفتاحه عند الرجل الذي يعرف مقدار مدخراته، وهو الذي يبيع ويشتري ويبادل ويغير الموضة، ربما لأن المرأة لا تتعامل مع الرجل خارج العائلة. أو لأن الزوج هو الذي يموّل هذه العمليات. كما أن لمزاج المرأة دوراً مهماً بهذا الصدد: فإذا كان المهم بالنسبة لها أن توجد المال لشراء ما يعجبها من حلي دون أن تفكر بارتفاع ثمنها، فإن الرجل يتربص فرصة هبوط الأسعار يغتنمها في سبيل التجارة أو شراء بعض الحلي لنساء داره. وترتبط أسعار ومدخرات الحلي بمواسم الحصاد، فترتفع الأسعار ويزداد الرصيد المخزون من المصاغ لدى العائلة في الموسم الجيد. إذ يشتري الفلاح قطعاً جديدة من الفضة. ففي مصر مثلاً يبدأ موسم جني القطن في أكتوبر. فإن كان جيداً ارتفع سعر المعدن النفيس واشتد الطلب عليه، وان كان سيئاً زاد العرض وحصل العكس. وكذلك الحال بالنسبة إلى محصول الفول السوداني في أفريقيا. وكان بعض صاغة دمشق ينتقلون إلى القرى بعد الموسم الجيد لحصاد القمح لبيع الحلي إلى نساء الفلاحين. كما تتحول قيمة الحلي في حالات القحط والجفاف إلى مواد غذائية واستهلاكية تعين العائلة على الثبات والعيش والعمل بانتظار موسم أفضل. ويذكر أن هجوم الجراد على المغرب في ربيع الأول من عام ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م اتى على المزروعات والمحاصيل مما نجم عنه قحط شديد وارتفاع أسعار المواد الغذائية فاضطر الأهالي إلى بيع أثاثهم ومصاغهم بأثمان بخسة لشراء احتياجاتهم من البضائع. وهذا أحد العوامل التي أدت إلى اضمحلال التراث الصياغي الريفي ونماذجه القديمة في الأقاليم الإسلامية وتدني

مستواه التقني والفني. والعائلة الفلاحية التي تبيع مصاغها لهذا السبب أو ذاك في الأسواق الاعتيادية والموسمية وإلى دلالي الفضة، تحصل على مبالغ مهمة بالنسبة إلى دخول المزارعين والرعاة وصغار الباعة. ويظهر لهم بأن الأسعار التي يبيعون بها الحلي تتضمن أرباحاً ناجمة عن الفارق الكبير بين ثمن الشراء قبل عقود وسنوات وبين سعرها الحالي. غير أنهم لن يستطيعوا تعويض ما يباع بمصاغ آخر مكافيء في المستقبل إذا ما حصلوا على المال في مواسم الحصاد الجيدة وذلك بسبب ارتفاع أثمان الشراء نتيجة زيادة أسعار المعادن النفيسة والمواد الأولية المصاحبة لصياغتها وتصاعد تكاليف المعيشة وأجرة اليد العاملة التي تتضاعف مع مرور الزمن.

وهذا ينعكس على الصاغة الذين يعانون من انحسار الطلب المحلي على المصاغ. فيضطرهم هذا أو غيره من العوامل إلى البحث عن سبل أخرى للرزق منها تغيير مهنهم وتحول بعضهم إلى صياغة الذهب انطلاقاً من أن الجهد المبذول في صياغة الفضة والذهب واحد ولكن مردوده في الذهب أعلى بكثير.

يعتمد رواج المصاغ من المعادن النفيسة على مستوى المعيشة ودرجة تحضر الشعوب وقيمها وتقاليدها. فكلما ازدهر اقتصاد الدولة وكثر أغنياؤها شاع استعمال المواد النادرة والسلع النفيسة ومنها الحلي الذهبية. وما إن تتدهور الأحوال الاقتصادية التي تصحبها تغيرات هامة في المجتمع حتى يتبعها استخدام مواد أرخص ومنها الفضة. ويلاحظ بشكل عام أن متوسطي الدخل في الأقاليم الإسلامية هم أكثر فئات المجتمع الذين يتزينون بالحلي من الذهب أولاً والفضة ثانياً.

وفي بعض المجتمعات الأفريقية الرعوية تقاس الثروة الحيوانية بالماشية، والزراعية بالأرض. فالبقرة أو الحصان تساوي عدداً محدداً من الأطواق النحاسية أو الفضية أو الذهبية التي توضع في عنق المرأة أو حول ذراعها أو تغطي ساقيها.

ومن الأعراف القبلية لدى العرب هو افتداء القتيل بالمال أو المصوغات من المعادن النفيسة.

وتمثل الحلي بالنسبة للتونسيات والموريتانيات مجالاً مهماً للتباهي كما هو الحال لدى الطوارق والبدو وغيرهم في المجتمعات الإسلامية. فيتزيّنّ بعدة قطع منها في آن واحد يحملنها في حلهن وترحالهن. فالكرديات والسوسيات والصحراويات مولعات بحمل كميات كبيرة من الحلي، وكأنهن خزائن متحركة. وتظهر الحلي خلال حركتهن من تحت الحجاب تارة ومن ثنايا الخمار تارة أخرى، خاصة بالنسبة للمسنات اللاتي يتمسكن بالتقاليد والتراث بقوة فيسرْنَ عليه ولما لديهن من ذكريات ومناسبات لاقتناء وحوزة الحلي جعلتهن في نفس الوقت يدخرن كميات كبيرة منها. كما تنظر المرأة إلى مصاغها كواسطة للفت انتباه الرجل وجذبه لطلب يدها. وما يقوله المثل (قدمت بلباس) فإنه يشمل زينة الحلي كذلك، إذ بقدر ما تحمل المرأة حليا كثيرة وجميلة وثمينة بقدر ما تستقبل جيداً ولو للوهلة الأولى.

تجمع العوائل مصوغاتها بالإرث. وتستخدم الحلي كهدايا بشكل واسع. فالفتاة تحمل حلية أمها التي أهدتها لها سلفا... هذا بالإضافة إلى الهدايا التي تقدم في المناسبات سواء في إطار العائلة، من الأب والأم إلى الإبنة أو من الزوج إلى الزوجة، دليلاً على اعتزازهم بها وحبهم لها. أم خارج العائلة، من الحبيب إلى حبيبته. ونفس الشيء بالنسبة إلى الهدايا المتعارف على تقديمها بين الأقارب والأصدقاء في الأفراح كالولادة والختان، والمناسبات الدينية، إذ تحصل الفتاة المغربية على سوار أو قرط أو خاتم في ليلة ٢٧ رمضان حين تبدأ أول صيام لها. وكذلك في اليوم السابع من عيد المولد النبوي الشريف. إضافة إلى ما تقتنيه المرأة مما يعجبها وتتلذذ بشرائه. وتكون الحلي حاضرة في مسيرة الزواج في وقت مبكر جداً... فحين تولد الفتاة يبدأ أهلها بتكوين رصيد لها ينفعها للزواج والمستقبل، فما إن يعلم الأقارب والأصدقاء بالنبأ السعيد حتى تنهال الهدايا على المولود الجديد. فمنهم من يفتح لها حسابا في المصرف، ومنهم من يشتري لها حلياً. وتفهم الفتاة هذه التحضيرات جيداً منذ صغرها. ويظل هذا الرصيد يكبر ويكبر مع الزمن. ويزداد بشكل نوعي عند الخطوبة والزواج حين تتسلم الفتاة صداقها

مصاغا وهدايا من أهل وأقارب وأصدقاء العائلتين المتصاهرتين. (فالشبكة) هي هدية العمر ورمز «وقيمة» العروس في نظر أهلها وتقدير الخطيب لخطيبته، ويتضخم الرصيد بعد الزواج حين تجر المرأة زوجها طوعاً أو قسرا إلى أسواق الذهب تختار وتقتني وهو يدفع ويتذكر عادة. فالمرأة لا تكل من تكرار طلبها للحلي خاصة بعد زياراتها للأهل والأصدقاء حيث تشاهد ما اشترته النساء وتتشبه بهن مهما كان وضعها الاقتصادي والمالي ضعيفاً. فالمهم بالنسبة لها أن تشارك الأخريات الحديث عن الذهب وتتباهى بما لديها من حلي. وتحب غالبية النساء الظهور بمظهر الأناقة والغنى في آن واحد. وتنعكس رغبة المرأة في الفخر والتباهي بثروة زوجها أمام المجتمع وخاصة النسائي، عن طريق لبس الذهب والماس والأحجار الثمينة في المدينة. أما في القرية فتتم هذه المباراة بحمل مجموعة كبيرة من الحلي الفضية التي تتسم بالضخامة وثقل الوزن. ولا غرابة أن نجد بعض النساء يستعرضن أحيانا حلي صديقاتهن وأقاربهن لإظهار الثراء والغنى في المناسبات الاجتماعية والاحتفالات. فبعض النساء يشعرن بالخجل وكأن لباسهن ناقصا بدون حلى جديدة ومتميزة. وتتزين النساء بكل حليهن في مناسبات محددة مثل الزفاف وعيد الفطر وعيد الأضحى والولادة والختان.... بينما لا تتزين المرأة المسلمة في جل الأقاليم الإسلامية في حالة الحداد على فقيد أو في شهر رمضان. وتتزين أغلب النساء ببعض الحلي بشكل دائم مثل القرط وقلادة وزوج من الأساور.

وتعتز الطوارقيات مثلاً بما يهديه لهن أحبابهن من مصوغات. فلا يمكن شراؤها منهن رغم حاجتهن الملحة للمال. وترفض بعض المغربيات بيع حليهن لاعتزازهن به، لأن الحلية «صداقي» أو «هدية لا تباع» أو «زينة وزوينة».. مقرونة بذكريات عاطفية حميمة. وإذا ضايقت بعضهن ظروف الحياة وتضطرها لبيع قطعة ما فإنها تطلب سعراً عالياً مقابل التخلي عنها، ولا شك فإن «الحدايد للشدايد». وترفض الريفيات في العراق بيع خزامهن لأن الخزامة حق الكفن عند الموت. وفي بعض المجتمعات الإسلامية كما في النوبة وفزان